الغيريّة

بقلم جناب فارس افندي الخوري

نعني بالغيرية كلّ عملٍ من طبعهِ جرّ المنافع او دَرْء المفاسد عن الغير . وهنا يتوجه منا السؤال فيما اذا كانت الغيرية مطلباً من مطالب العمران او مقوّماً من مقومات الاجتماع وهل الانسان مطالَب بنفع غيرهِ او هو قوّام على نفسهِ فقط لا يأتي عملاً الاّ اذا كانت مغبّتهُ لنفع ذاتهِ وثبات قدمهِ في حيّز التنازع . وفي الجواب عن ذلك نقول :

لو اعتبرنا اعمال الاحياء الظاهرة بقطع النظر عن المقاصد والمحرّكات الكامنة وراء تلك الاعمال والباعثة اليها نجد ان الغيرية تلعب دوراً جليلاً في تمثيل رواية الوجود الحيّ وذلك الدور يبتدئ منذ ابتلاج شفق الحياة وهي تقوم بالانانية كما ان الانانية لا تقوم الاّ بها

بما ان كل حيّ من جميع الصفوف يهتمّ بحفظ حياتهِ في الدرجة الاولى وبحفظ نوعهِ في الدرجة الثانية وبما ان السُّنة التي تجري الاحياء عليها لبلوغ هذه الأمنية هي واحدة لجميعها يحسن الآن ان لا نقيّد بحثنا في الانسان فقط بل نطلقهُ على الحيوانات لتناول الادلة والامثلة من جميعها على اختلاف طبقاتها وتباين رتبها . وهذه خطة جرى عليها علماء الطبيعة في هذا القرن ان يرجعوا الى البسائط عند بحثهم عن المركبات سواء كان البحث في المادّة والاعضاء او في الحركات والافعال خصوصاً عند تحقيقهم مبادىء الانسان وطباعهُ ذهاباً الى ان قواهُ منسلخة عن قوى الحيوان ومنتزعة منها وان جميع الطباع والاخلاق التي فيهِ موجودة في الحيوانات السافلة بكيّات تنقص مع هبوط درجة الحيوان في سلّم الارتقاء الى ان تصير في ادنى درجاتهِ قليلة صغيرة بحيث يكاد لا يشعر بها . وقوى الانسان تختلف عن قوى الحيوان بالكمية وليس بالكيفية وهذه القوى تكون في درجاتها الاولى بسيطة طبيعية لم يعتورها تغيير ولا تكييف ومنها يتطرقون الى ما تشعّب تركيبهُ وتفرّعت اعضاؤهُ وكل ذلك وسيلة الى بلوغ الحقيقة التي هي محجتهم المقصودة وضالتهم المنشودة

الحيوان بطبعهِ ميّال الى الخلود طامع بان تبقى لهُ حياتهُ ما دامت الارض والسماء . وكل حاجة للغذاء او تأثر طبيعيّ بحرّ او برد او اقتحام من حيوان آخر او أيّ فاعلٍ يعمل على اضعاف قوتهِ وايقاف حركة الحياة فيهِ مكروهٌ عندهُ سواء كان الحيوان ذا عقلٍ وارادةٍ او ذا طبيعةٍ وسليقة ولذلك تراهُ يعمل كلّ ما في وسعهِ ويبذل الجهد المستطاع ليتخلص من الاخطار ويفرّ من المنية فهو اذن يحاول اول كلّ شيء ان يحافظ على حياتهِ بالتجانف عما يجعل

حبلها قصيرًا والاقدام على ما عدَّ فيها عمرًا طويلاً . ولا شيء أكفل لتنويل هذه الغاية من الاقتصاد بالقوَّة التي يحرزها الحيوان وصرفها حيث تثوب اليهِ وينتفع بها. وكل عمل يديه لهذه الغاية لتمهيد سبل الحياة امامهُ وتطويل المدَّة التي يعيش فيها هو مندرج تحت الاثانية ويُعدُّ من قبيل ايثار النفس

اذا قلبت حجرًا صغيرًا على ظهر دمنة وكان تحتهُ جماعة من الاجياز او الخنافس تجد تلك الحشرات تضطرب وتنزعج عند رفع الغطاءِ عنها وتعريضها للفواعل الطبيعية فتذعر وتهيم على وجوهها الى كل الجهات وواحدها يهمُّ مسرعًا لا يلوي على شيءٍ الى ان يجد لنفسهِ موطنًا جديدًا وحرزًا امينًا تحت حجرٍ او في تقبيرٍ من ثقوب الارض فيعتصم فيهِ لبقيةِ ما يمكن ان يقتحمهُ من الشرور والآفات . واذا كان وراءهُ رفقة واشتد عليهِ الخطر لا يعود يكترث لامرها بل لا يشغلهُ الاَّ ان ينجو بنفسهِ كما فعل الحرث بن هشام في وقعة بدر فانهُ

ترك الاحبة ان يقاتل عنهمُ ونجا برأس طمرَّةٍ ولجامِ

الاَّ ان هذا الحذر والتوقي لا يغني عن الفرد شيئًا فالكريات الحيوية التي يقوم بها استقلالهُ في قيد الوجود والشعور لها أجلٌ تبلغهُ وحدٌّ تقف عندهُ لا تستطيع بعدهُ الاستمرار في النمو والنشاط فيحل بالفرد الفساد ويقف فيهِ عمل الحياة رغمًا عن فرارهِ من الموت وتجافيهِ عن دعاوي الهلاك كما قال الشاعر

يوشك من فرَّ من منيتهِ في بعض غرَّاتهِ يصادفها

او كما قال الآخر

فمن لم يمت في اليوم لا بد انهُ سيعلقهُ حبل المنية في الغد

فهو اذن عاجز مهما بذل من الوسائل واستمد من الحبائل عن ان يؤخر اجلهُ الى الابد ومن ثم يعود فيقنع ببقاء نوعهِ وتركهِ في الارض ذريةً من شكلهِ يدوم بها النوع محفوظًا

وكما ان الفرد الحي يبذل من قوتهِ للمحافظة على نفسهِ وابعاد الموت عنها كذلك هو حري ان يبذل من قوتهِ مقدارًا كافيًا لاجل المحافظة على نوعهِ. وهذا الامر واقع ومرعي الاجراء في جميع طبقات الحيوان من ان كل فرد يدفع من قوتهِ جزءًا غير قليل لاجل اقامة النسل اولاً في عمل التوليد وثانيًا في تربية الصغار . فان كان التوليد بالانقسام كما هي الحال في الانفيزوريا وغيرها من فصيلة البروتوزوى يكون الحيوان قد خسر وجودهُ مستقلاً بعدما يتجزأ ويصير منهُ عشرات او مئات من جنسهِ ويموت اكثرها او كلها بفقدان حاجاتها الى الحياة . واذا كان التوليد بالمزاوجة كما هي الحالة في ما فوق تلك من الفصائل يكون الحيوان قد اعطى جزءًا من

جسدهِ ليتكون منهُ النسل وهذا الجزء هو بعض قوتهِ التي يملكها بحق الاكتساب . وفي فصيلة الحشرات بعد ان تتمّ الحشرة عمل التوليد وتضع بيوضها بمكان أمن تنقضي حياتها وتتأسر الى الفناء كأنها لم تعش الاَّ لتقوم بهذا الواجب وتحيي لنفسها ذكرًا يخلد الى الذرية فتى اتمت عمل التناسل تموت غير مأسوف عليها

ولما كان سير الحركات الحيوية في الفصائل الانفة الذكر طبيعيًّا انفعاليًّا اصبح فيها ما يجيز القول بضعف الاستقراء اذ انهُ لا دليل على ان افعال هاتيك الحيوانات السافلة مقرونة بالعقل والارادة او انهُ يصحبها شيءٌ من القصد بل ان عدم التنويع في معيشتها يسوق الى القول انها مسيّرة في هذا السنن مضطرّة الى تتبع تلك الخطة وهي لا تعي معنى ما تفعل فلنعبر عنها الى ما هو اعلى منها تاركين امر الغيرية في التناسل والتوليد اذ لا يُرتاب في أن الحيوان يبذل من جسمهِ قسمًا ولو صغيرًا يكون منهُ جرثومة او جنين لقيام النسل

جميع ذوات الثدي تهتمّ بشان صغارها وتنقب في الارض باذلةً جزءًا كبيرًا من قوتها في التفتيش عن غذاء تموّن بهِ تلك الصغار . والطيور تحمل الطعام وتقطع بهِ المسافات البعيدة لتزقّ فراخها بهِ ولعلها تكون في حاجةٍ شديدة اليهِ . وكل ذوات الفقرات تظهر عليها علائم الاضطراب وتنبيء حركاتها بشدّة الانزعاج الذي يأخذها عند ما ترى صغارها في حالة الخطر اما في الانسان فالحقيقة اوضح من ان تجلى او تبسط وما يتجشمهُ الآباء والامهات من المشاق لتربية اولادهم والحرص على رفاهم يزيد على نصف اعمال البشر

كل هذه الاعمال التي يقوم بها الحيوان الاعجم بطبعهِ والحيوان الناطق بطبعهِ وعقلهِ معًا حبًّا باقامة النسل وحفظ النوع تقتضيهِ ان يبذل في سبيل غيرهِ من القوة التي كان يدّخرها لمنفعة نفسهِ . وكلما زادت مقدرة الحيوان على خدمة نفسهِ تزداد مقدرتهُ على خدمة نسلهِ وتزداد اهليتهُ للتوليد وتربية الصغار وكلما ضعف عن خدمة نفسهِ ضعف عن خدمة ولدهِ ومن ثمَّ كانت الانانية والغيرية من هذه الجهة متلازمين لا يفترقان ورفيقين لا يختصمان . وكلُّ حيوان يتطرف في ايثار نفسهِ ويضنُّ بجزء من قوتهِ في التناسل والتربية يجازى بتناقص ولدهِ اولاً وبفناء نوعهِ اخيرًا وبذلك تكون الطبيعة عاملة على التخلص من كل من هو متطرف في الانانية وحب الذات كما انها عاملة على التخلص من كل من هو متطرّف في الغيرية وخدمة الجنس كما اثبتنا ذلك في المقالة السابقة

ينتج مما تقدَّم ان الغيرية تصاحب الانانية بين الفرد ونسلهِ وتشتد اواخيها وتتوثق عراها كلما دنت درجة القرابة حرصًا على بقاء النوع الذي يحنُّ اليهِ ويشتاقهُ كل حيوان . والحيوان

الذي لا ينفق عليهِ ابواهُ قوة كافية في تربيتهِ يشبّ ضعيفاً عاجزاً فلا ينفق هو في تربية ولدهِ الاَّ مثل المقدار الذي انفقهُ ابواهُ في تربيتهِ او اقل منهُ . وهذا الخفيد يكون بالولادة اضعف من ابيهِ لان اباهُ اضعف من جدهِ وهكذا يبقى معدل القوة آخذاً بالتناقص الى ان يتلاشى النوع . وبالعكس اذا اورث الفرد ابنهُ قوى شديدة وجهزهُ باعضاء كثيرة تشدُّ يدهُ في عمل الحياة فالابن اذ ذاك يورث ولدهُ مثل الذي ورثهُ من ابيهِ او اكثر منهُ وبها ترتقي سعادة المجتمع ويحسن حال الافراد

ان الغيرية تكون اولاً بين افراد العائلة الواحدة ثم تنتشر وتمتد بازدياد العلائق المدنية الى ان تصير بين العشائر ثم بين القبائل ثم بين الاتحاد ثم بين البطون فبين العمائر فبين القبائل فبين الشعوب وهذا الامتداد لا يتمُّ ولا يكون وثيق العرى الاَّ اذا كان العمران مسيَّراً على قواعد تصلح لانتشار الغيرية وتمالىء عقل الانسان على تنشي الميل الى خدمة الجنس . فان كانت الشرائع الادبية والدينية التي يخضع لها القبيل تمسك افرادهُ بربط الاتحاد والاخاء والحرية والمساواة وكانت موائيق المزاوجة متينة العقد والحب بين الزوجين شديداً لم يشبهُ امر الضرار والمنازعات بين العصبيات قليلة ونظام الاعمال يُرصن بالعدل كانت اواخي الغيرية والميل لخدمة الجنس على اشدها والعكس بالعكس . وانت ترى اليوم ان الغيرية لا تقتصر على كونها في بيت واحد بين الاب وابنهِ بل تجاوزت هذا الحد وصارت تضمُّ كل الذين تجمعهم جامعة واحدة لمصلحة يستثمرها احد الطرفين بحسن حال الآخر . كل البلاد المتمدنة تتأثر بسوء في تجارتها عند ما تشب حرب بين امتين . واذا انحلت كورة يخسر كل من لهُ علاقة مع سكانها وهذا يظهر ان المصلحة المدنية عاملة على تعميم الغيرية بين الشعوب كلها

من هذا المقام تتدرج لاظهار المغانم التي يجرها المرء لنفسهِ والمغارم التي يدفعها عنها اذا كان في امة ينفق كل ثمن افرادها شيئاً من قواهُ في اصلاح غيرهِ واجتذابهِ الى محجة الصواب . ولننظر اولاً في المنافع التي تنعكس على الافراد اذا كان العدل سائداً في الامة والتعدي والظلم ممنوعين على اعضائها . اذا كان الناس بدل ان يتفرقوا تحت كل كوكب قد اجتمعوا لاجل الحماية ومآرب اخرى يجب ان يكون الربح الذي يجنيهِ كل فردٍ من الاجتماع اكثر من الخسارة التي يتحملها بهِ وغُنمهُ بالائتلاف اوفر من غرمهِ برحامهِ مع مواطنيهِ . وتلك الزيادة من اللذة الشخصية لا تتوفر الاَّ بغيرية تجعل الفرد يعترف بحقوق الغير عليهِ مختاراً او مكرهاً . فان كان مكرهاً على هذا الاعتراف بما يخوف من العقاب او الانتقام تكون منافع الاجتماع قليلة واذا كان اعترافهُ بها اختيارياً اي اقرب الى الغيرية وعرف كل حقوق غيرهِ فاداها بدون تقاض

تبلغ فوائد الاجتماع مبلغاً جليلاً . وحيث لا وازع يزع القوي عن الضعيف كما هي الحال بين بعض قبائل اوستراليا حيث ينازل الرجل غيره لاجل احراز المرأة وحيث ينازل نساء الرجل الواحد بعضهن بعضاً بالشفار والعصي لتستأثر الغالبة به ما دامت متغلبة لا يستطيع الفرد ان يتمتع بلذات حياته لان الحزازات الداخلية والعداوات الاهلية تجعله دائماً حذراً وجلاً على نفسه فيصرف قسماً من قواه بالخوف وقسماً آخر باخذ الاهبة والاستعداد للدفاع اذا دعت الحاجة ناهيك ما يحصل من التشويش في حركة الاعمال عند ما يفقد الامن على الدم والمال. وكلما كثر خصوم المرء والطامعون بما عنده ساءت حاله لان اولئك الذين يضمرون له الشر يتربصون به الدوائر وينتظرون فيه الفرص ليوقعوا به ويأخذوا ما في يده من المال والمتاع وبذلك يلزمونه ان لا يخرج من منزله الا شاكي السلاح خفوق القلب

ولا يكتفي المجتمع من الفرد بان يراه قائماً بالقسط وحده بل يطالبه بان يجعل اصحابه وذويه ومن هم في حيزه يجرون على العدل في معاملاتهم لان احجام الكثيرين عن تأدية الحقوق يمنع الفرد ان يتمتع بنتيجة اتعابه ويجعل تلك النتيجة مشكوكاً ببلوغها . ومثل ذلك قل عند ما يعتاد الناس اخلاف المواعد والتملص من عقال الروابط في المساومات اذ كلما قلت امانة المشتري يرتفع ثمن السلعة وكلما نقصت الثقة بالمديين علا معدل الربا . وهذه واشالهامن النتائج المضرة التي تترتب على غش المتعاملين واسترسالهم الى هضم الحقوق تعود على راحة المجتمع بالاقلاق وعلى بنيه بالخطر والازعاج وتظهر ان اللذة الشخصية التي يرجوها الفرد في حياته المدنية تتعلق على اهتمامه بامر الغير واجتهاده بان يصلح فاسدهم ويقوم مائلهم . ولا يليق بنا ان نتخطى هذه الفقرة المختصة بالعدل قبل ان نذكر شيئاً عن اختلال الادارة في القوة الحاكمة وما لذلك من اليد الطولى في تشويش اعمال الافراد وانتزاع راحة العباد فالرجل الذي يزعم انهُ لا يتعرَّض لاولياء الحل والعقد ولا يتتبع حركاتهم للتصحيح او التجريح بل يقوم على شغله الخاص ويتركهم في طغيانهم يعمهون — من يزعم ذلك قد غاب عنهُ ان شغلهُ لا يستقيم امره الا باستقامة امر اولئك ولا يأمن على سعيه وديونه وبنيه وعقاره وحياته الا اذا كان في دولة مسيَّجة بالعدل وقائمة على الحق

اما اذا كان يجلس على كراسي الحكم قوم لاخلاق لهم همهم استنباط الحيل لابتزاز اموال الناس بالرشى والاغتصاب يفسدون في الارض ويقولون انما نحن مصلحون لا يصلون الى مناصبهم الا بتزلفهم الدنيء او ببذل المال او بقرابتهم لاحد الحاظين عند الملك . يتربعون في دست السيادة فيملأونهُ شحماً ولحماً وفوق الشحم واللحم رؤوس عشش فيها الجهل فانتج اوهاماً

وشروراً . اذا كان امثال هؤلاء يتولون امر الامة دبَّ في عروقها الفساد واسرع اليها الفناء. اذاً على الفرد من هذه الجهة اولاً ان يكون هو نفسهُ عادلاً قوَّاماً بالقسط ثانياً ان يكون داعياً الى العدل والاستقامة ثالثاً ان يساعد القوة الحاكمة في اجراء العدل ويبذل معها استطاع ليستأصل شأفة الظلم ويتقي البلاد من كل عاطل معطل وفاسد مفسد. وهو ان فعل ذلك حقيق بان يتمتع براحة واقبال ويرتع في العيش الخُضال

ان رفاه الفرد لا يقوم بانتشار العدل فقط بين مساكنيهِ والمحافظة على تأدية الحقوق وسلامة الحياة بل ان للصحة الوطنية لها اثرٌ شديد على انبساط عيشهِ وحسن حالهِ

اذا سعينا المشتغلين في سبيل استثمار الارض وصناعة السلع موجدين والذين يأكلون الاثمار ويُخلقون السلع منفقين يكون كل افراد الامة منفقين والفريق الاعظم موجدين. وبديهيٌّ ان كمية الاشياء التي يوجدها الموجدون توزع بين كل افراد الامة للانفاق . وكلما زادت تلك الكمية زادت الحصة التي تصيب كل واحد من المنفقين وزيادتها لتوقف على امرين عدد الموجدين وقدرتهم على الايجاد . اذاً كلما زاد عدد الاقوياء الذين يستطيعون العمل وزادت مهارتهم في طرق الايجاد وقوتهم على الاكثار منهُ تزيد حصة الفرد من المنفقين. ولا يزداد عدد الموجدين الاَّ اذا قلَّ الضعفاء الذين في بيتهم نقص فطريٌّ او طارئ فيمنعهم استطاعة العمل في وظيفة يكون منها نفع لتكثير حاصلات البلاد. وكلما زاد عدد هؤلاء العجزة قل عدد الموجدين ومقدار الخيرات وبالنتيجة قلت الحصة التي تصيب الفرد الواحد لانهم عيال على المجتمع يأكلون ولا يشتغلون . اذن يجب على كل فرد ان يعمل ما استطاع ليقلل عدد هذه العالة لا قتلاً ولا اهمالاً بل بمداواتهم وتخفيف ويلاتهم وبالاهتمام باولادهم كي لا يشبُّوا مثلهم حملاً باهظاً لكاهل الانسانية وهم اذا تُركوا لانفسهم يزوجون ويتزوَّجون بدون عناية وتهذيب يثمر عددهم ويكثر سوادهم حتى يملأوا الشوارع ويقطعوا الطرق على المارَّة بمدودي الايدي وهم يجأرون بالدعاء الى الله ليدر عليهم صدقات المحسنين ولذلك تراهم في البلاد التي لا تصلح الحكومة فيها شأنهم اكثر عدداً وابين تنشياً مما هم في غيرها فلا تخلو منهم منعطفات الطرق وجوانب الجوادّ واذا عثروا على رجل في قلبهِ شفقةٌ عليهم لا يفرجون عنهُ حتى يصير مثلهم . وليس العجزة فقط ينفقون ولا يوجدون بل لهم شركاء لا يمكن اصلاحهم والبهم اشار شلي (Shelley) الشاعر الانكليزي في قصيدةٍ نعربها هنا مثالاً من الشعر الافرنجي في باب الحماسة والاستنفار قال

يا رجال انكلترا على مَ تحرثون للشرفاء الذين يتهنونكم والى مَ تحوكون الحلل الفاخرة

ليلبسها المستأثرون بأمركم ؟

على م تطعمونهم وتكسونهم وتحرسونهم من المهد الى اللحد وهم اشبه بذكور النحل لا يعرفون لكم فضلاً بل يستنزفون عرقكم ويشربون دماءكم ؟

الى م يا رجال انكلترا الامناء تطبعون السيوف وترهفون الحراب وتجيدون صنع الاسلحة ليستعين بها اولئك الخاملون الضعفاء على اغتصاب ما تكسبون بشق النفس ؟

اهو الرخاء ام العزاء ام الاطمئنان ام المأوى ام الطعام ام عصير الحب العطر او ما هو الذي تشرونهُ بهذه الاثمان الغوالي بآلامكم وبخوفكم ؟ تزرعون وغيركم يحصد توجدون وغيركم يذخر تنسجون وغيركم يلبس تصقلون وغيركم يتنضى

ازرعوا البزور ولا تدعوا المستبدين يجنون ثمارها . اوجدوا الثروة ولا تدعوا الماكرين يحشدونها . انسجوا الحلل ولا تدعوا الكسالى يلبسونها . اطبعوا السيوف واحضوها للذود عن حوضكم

انفروا الى أكواخكم واوكاركم وكهوفكم فالقصور الباذخة التي تشيدونها يتنعم فيها غيركم . لماذا تخوّفون بالاغلال التي صنعتم وبالشفار التي صقلتم ؟

بمعاولكم خطّوا رموسكم وبآلات بنائكم عمروا قبوركم وعلى انوالكم انسجوا اكفانكم حتى تضمكم ترب انكلترا وتفنوا غير مأسوف عليكم . آه

ثم وان كان ضعف العجزة المعدمين واعتمادهم على غيرهم في تجهيز حاجاتهم ناتجاً عن خلل في اجسامهم او مخاطر بينتهم او خمول في عقولهم وزيادة عددهم تؤثر في كل فرد سوءًا بتراكمهم في دور العجزة والمستشفيات الاهلية وبازدحامهم في مفارق الطرق وعلى الابواب وان كان ذلك الضرر بيّناً واضحاً الاّ ان الضرر الذي يلقاهُ الفرد باختلال امر الصحة الاهلية اوضح مما هو في تلك . فاذا كانت الاجسام ضعافاً والبنيات ضعيفة ووفد على الامة احد الامراض المعدية كالحمى التيفوئيدية او الهيضة او الطاعون او الجدري او الخناق تكون هذه الامراض سريعة التفشي بينهم وذريعة الفتك فيهم ولا يأمن ذلك الفرد ان يوقع به المرض وهو يختطف جيرانهُ الواحد بعد الواحد وان سلم هو من بطشهِ فقد لا تسلم امرأتهُ او ابنهُ او ابنتهُ او خادمهُ او احد ذويه في المعاملة . وفي كل الاحوال يكون تشويش الصحة العامة عائداً عليهِ بالمضرة فهو اذا بذل جزءًا من ثروتهِ المالية في تنظيف الاغرفة وتنقية المياه ومداواة المصابين المحاويج وتغذيتهم وتقوية اجسامهم ليتغلبوا على الامراض وينجوا من الادواء اذا نزلت بهم يكون بذلك خادماً نفسهُ باذلاً المال في سبيل مصلحتهِ الشخصية وجرّ السعادة والراحة الى ذاتهِ

وليس الامر باقلّ خطارةً في قوى الامة العاقلة فدرجة العقول العامة من الارتقاء ومنزلتها

من التهذيب والتثقيف لها يدٌ طويلة في تكييف حالة الفرد وتعيين مقدار سعادته ونضارة عيشه. فان كان الجيل فاشياً في الامة يكون نظام التعليم قاصراً ودوائر المثقفين محدودة فلا يتمكن الفرد من تعليم اولاده والراجح انهم يشبون جهلاء اغماراً مثل مواطنيهم المثقفين عليهم. واذا استأجر صانعاً يصنع له سلعة او استبضع السلعة من السوق تكون تلك السلعة ناقصة الشروط رديئة الصنعة غير كافلة له كفاف الحاجة. واذا استخدم جارية تصلح له شؤون بيته وكانت الخوادم في بلدٍ قصار العقول عاريات عن المعرفة لا يأمن اذا خرج في الظلام ماراً في بهو الدار او في الدهليز او في المطبخ ان يطأ صحون الطعام او يدوس في ماعون الطبخ او يعثر بدلو الماء فيخرّ على وجهه ويسيل الدم من انفه. واذا جاء بطعام واقترح عليه طعاماً يطبخه له وكان الطاهي جاهلاً فالرجل عرضة لأن يصاب بسوء الهضم او مضطرٌ الى ان يترك الطعام المطبوخ لرداءته ويأكل من حواضر البيت. وقس على هذه غيرها من جميع الحاجات التي يلتزم فيها الفرد الى التماس المساعدة من الناس. واذا كانت وسائل الايجاد غير مرتقية وعقول الامة مقيمة على التقليد لا تأتي لها في التوليد وتحسين الطرق الصناعية تكون السلع قليلة المنفعة كثيرة النفقات غالية الاثمان. فمن ذلك ترى ان قصر عقول افراد الامة وانحصار افكارهم في دائرة ضيقة وقلة معارفهم بطبائع المادة وخواص الاجسام تجعلهم عاجزين عن اتقان وظائفهم قاصرين في مطالب صنائعهم وهذا العجز والقصور ينعكس ضرره على كل فردٍ من افراد الامة ويحصد عامتهم منه نكوداً تجعل العيش مرّاً والحياة جحيماً. فيستخرج من ذلك ان الفرد اذا ارخص في ترقية درجة العقل العام ونشر مبادىء العلوم التي تفيد الناس في اعمالهم يكون له من ذلك نتيجة حسنة تجعل عيشه طيباً وحياته نعيماً وذلك يكون بمساعدة المدارس وتشيط الجرائد النافعة وتجلّة العلماء ومدّ اندية العلم ودور المطالعة بالاسعاف وحث الناس على الاقبال عليها والاسترشاد بنورها

اما الفوائد الناجمة لكل عضوٍ من اعضاء المجتمع عن حسن المبادىء الادبية المنتشرة في الامة فليست اقل اهمية مما تقدم. اذ ان الصدق وبراءة الذمة في المعاملات وعادة الاخلاص في الود والامانة في الاعمال واتباع صوت الضمير الصالح وحسن ذات الناس وصفاء النيات والسرائر توجب طمأنينة المرء وارتياحه الى صدق العلائق المدنية وثقته بصحة ما ينقل اليه من الاخبار ويعرض له من التقارير في ضروب المعاملات. ويكفيه عبء تعقب الحوادث التي تمسّ مصلحته ليعرف صحيحها من فاسدها ويميز بين صادقها وكاذبها. ولكن اذا كان الضمير العام موسوماً وآداب القوم فاسدة وعقارب الكذب والمكر والغش والفسق والاختلاس

دأبة بينهم يبقى الفرد وقواهُ منصرفة الى توقي الشرّ وعيناهُ تحدقتان يلتفت يمنةً ويسرةً و يتمنى لو لهُ عيون في ظهره لئلاَّ يفاجئهُ شرُّ الناس على حين غرَّة . واذا اشترى سلعةً ينقد ثمنها وقلبهُ يخفق ويدهُ ترتجف فيحمل السلعة الى منزلهِ ويحشد عليها رجال الحي من اهل الخبرة لاجل اعطاء القرار في ما اذا كان مغبونًا بالثمن فان وجد انهُ اشتراها بقيمتها ابرقت اسرتهُ وطار فرحًا وحسب الصفقة نصرًا عظيمًا وفخرًا مبينًا واحتفظ بالسلعة علامة للظفر واذا كان قد اشتراها حريرًا فاذا هي كتان او ذهبًا فاذا هي نحاس يصنق صفقة المغبون ويقرع سنَّ النادم ويسوء عيشهُ بعدها اياما كثيرة بل يزيد ذلك في حذره وتوقيه ويوطن النفس على انهُ لا يصدق بعد اليوم بانما معًا اغلظ الاقسام واحرج الأيمان . ولا يخفى ما لاستعمال المبادىء الرديئة بين الناس من سوء العاقبة والتدرج الى ارباك حركة التجارة وعرقلة ايدي الصناعة فترتفع اسعار السلع وتقل متانة الادوات ويعلو معدل الربا ويبقى الناس لاهم لهم الاَّ اختراع الوسائل ليوقعوا بعضهم ببعض ابتداء وانتقامًا وتنتشر بينهم العداوات وتتأصل في صدورهم الحزازات وتفقد المروءة والشهامة ويضيع حق الوفاء بين الطمع والحذر والغدر والخيانة

فالفرد اذا ضحى جزءًا من قواهُ المالية والادبية لاجل اصلاح آداب العامة والنزوع بالناس الى معارج الحق والفضيلة ترجع اليهِ قوتهُ المبذولة بفائدةٍ ينعم بها بالهُ ويستتم شأنهُ وحالهُ . وذلك يقوم اولاً بان يكون هو مثالاً صالحًا وقبسًا نيرًا يعشو المدلجون الى ضوء نارهِ وينسج الجاهلون حلة الادب والفضل على منوالهِ بان يصلح ذات نفسهِ فلا يغشُّ في المعاملات ولا يكذب في الحديث ولا يشجع في يد الغير ليعمل على استلابهِ ولا عالىء في عمل وغيرهُ يشعرهُ بان ذلك العمل يشوهُ وجه الآداب ويحط من قدر الفضيلة . ثانيًا بان يجتهد في تربية اولادهِ واصلاح الفاسد من بيتهِ وتقويم منآد اصدقائهِ ومن لهم معهُ علاقة مادية او ادبية ويتجانف على الجلوس في مجالس الاستهزاء والمهاترة الاَّ لغاية النفع والارشاد وان يعمل على نشر المبادىء القويمة ليعمَّ الصلاح وتتوثق الفضيلة في النفوس وهو اذا فعل ذلك جديرٌ بان يصبح في امة تتنعم في الفردوس قبل عبور الصراط ومستحق ان يحيا حيًّا من الاذى ذا حظ موفور وعرض صين

وفي غير ما تقدم نرى ان حالات الناس تمسُّ مصلحة الفرد بحس المشاركة وهو شعور الانسان مع غيرهِ في الحزن والفرح . وبالحقيقة ان المرء يطلب السعادة ليس ليسرَّ نفسهُ فقط بل ليسرَّ ذويهِ واحباءهُ وما احسن قول المتنبي بهذا المعنى

لمن تطلب الدنيا اذا لم تُرِد بها سرورَ محبٍّ او اساءة مجرمِ

وهو بطبعهِ الوف يحب الاجتماع و يصغي بالود الى بعض شكوله ويتألم معهم اذا رآهم يتألمون فكثيرون يغمى عليهم اذا رأوا الدم يسيل في عملية جراحية ومنهم من لا يستطيع ان ينظر الى ولد يبكي او الى مريض يتوجع . وقوة هذا الحس لا عمل لها الاَّ بالعلاقة مع الغير فهي غيرية محضة ومن كانت هذه القوة عظيمة فيهِ تراهُ محبوباً كثير الاصدقاء يشعر معهُ الكثيرون اذا نكب و يجد ابدياً عديدة تمد لتنهضهُ اذا سقط . وقيل لبعض الحكماء ما العيش قال " اقبال الزمان وعزّ السلطان وكثرة الاخوان " . ومن الاقوال المأثورة عن النبي العربي " المرء باخيهِ كثير " ولا يكثر اخوان المرء الاَّ اذا كان الوفاً يتوجع مع اصدقائهِ ويفرح اذا فرحوا . اما من كان قليل الاكتراث بالناس لا يهمهُ سقوطهم او نهوضهم فهو ابداً عقيت لمن يحيط بهِ لا يجد من يشاركهُ في وقت حزنهِ او يفرح معهُ في فرحهِ . ومنها ترى ان افراح الآخرين واتراحهم تمسُّ حواسَّ الفرد واساً يتأثر معهم في شعور المشاركة . وحب الذات من هذه الجهة متعلق على حب الاغيار وتحسين حالهم ليكثر سرورهم وتزداد بهجة الفرد بهم

وفي الختام نذكر مسألة الاعياء وهي ان الشهوة الحسية اذا اخمدت كلما لمت او اوقظت وعلقت زيادة عمَّا تطلب يكون هذا قاضياً عليها بالاعياء . والعمل اذا كثر تعهدهُ به صار عادياً وتفقد اللذة بهِ فالذي يدخل معرض التمثيل المرة الاولى يشعر بلذة عجيبة ولكن اذا اكثر التردد اليهِ اعياهُ الملل وصار يدخلهُ كأنهُ غرفة عادية . والولد الصغير يبتهج كثيراً بسماع القصص التي لم يختبر مثلها في الطبيعة ولكنهُ متى نما وكثرت معارفهُ عن احوال المادة والناس لا يعود يلذهُ كل ما كان يلذهُ قبلاً ولذلك قالوا لكل جديد طلاوة . فاذا كان الفرد لا يهتم الاَّ بتجديد شهواتهِ والاكثار من الملاذ الشخصية يفقد اخيراً الشعور باللذة او على الاقل تهبط درجة لذاتهِ بالمطربات اما اذا كان يتلهى حيناً من الدهر عن خدمة شهواتهِ ويبعث بعواطفهِ الى خدمة الجنس يكون هذا الحين فرصة لعصبيتهِ تستجم فيها قواها وبثوب اليها نشاطها فيشعر عند كفايتها بلذة لم يكن لهُ بها عهد من قبل كالذي يضع على انفهِ زهرة ذات رائحة زكية فانهُ يشعر عند انتشاقها المرة الاولى بنكهة عطرة ولكنهُ اذا ابقاها على انفهِ واكثر من شمها يفقد الشعور برائحتها وهو اذا ابعدها عن خيشومهِ دقيقة من الزمان يستريح فيها عصب الشم ثم اعاد انتشاقها يعود الشعور بنكهتها كما كان . وهذه هي الحال في كل الحواس العصبية ينهكها الاكثار وتعود الى عملها بالراحة والتنويع . ان الشيوخ عند ما تضعف فيهم الشهوات الجسمية يحاولون تجديدها على طريق الغيرية فيبتهجون بان يروا اولادهم او احفادهم او سائر احبائهم يمارسون الاعمال اللاذة ويتمتعون بالعيش الطيب ولذلك تراهم في شيخوختهم ينصرفون الى عمل

الخير ومساعدتهم الناس توصلاً الى اللذة الشخصية

والخلاصة ان القول بالانانية لا ينفي العمل بالغيرية فقد اتضح جليًّا ان تلك لا تقوم الاَّ بهذه فاذا كانت الانانية جنساً تكون الغيرية نوعًا داخلاً في ذلك الجنس لان كل عمل غيري فيهِ منفعة شخصية والفرد اجتمع بالناس لانهُ عاجزٌ عن العيش بدونهم وربحهُ من الاجتماع هو كما قلنا سابقًا اكثر من خسارهِ بهِ . فالمبدأُ العام "ان تحب قريبك كنفسك" هو ركن العمران ومرجع لذة الفرد لان حب القريب مرجعهُ حب الذات . هذا وقد كتب علماء الافرنج مقالات ضافية في هذا الموضوع فمنهم من قال اعمل الخير لانهُ خير واتبع الحق لانهُ حق ومنهم من قال اعمل الخير لانهُ ينفعك واتبع الحق لانهُ يدلك على طرق النجاح وهؤلاء هم القائلون ان مبدأ الانتفاع مدار الاعمال والامانة خير سياسة . وقد استعنت في هذه المقالة بما كتبهُ الفيلسوف هربرت سبنسر الانكليزي واخذت عنهُ شيئًا كثيرًا منها

الجغرافية عند المشارقة

بقلم جناب محمد افندي كرد علي

قضت سنة الوجود وطبائع العمران ان تنتقل العلوم من يدٍ الى أُخرى وتتناولها امةٌ بعد امة جريًا على ناموس تنازع البقاء في جهاد هذه الدار وقضت ان يتخلَّف الشرق في الاعصر المتأخرة عن شقيقهِ الغرب في كل شيءٍ بعد ان كان أبا عذرة الكل وابن بجدة الكل تخلفًا يتوقف استبطان سرهِ على النظر في التاريخ لتجلي الحوادث التي ساقت الى هذه الحالة والمقدمات التي اعقبت تلك النتائج

وارجحناء على المشرق اتت عليهِ ازمانٌ بارت في خلالها بضاعة العلم فاقفلت خزانةُ وحوانيتهُ وتداعت اثابيرهُ ومستودعاتهُ وانقلب الشرقيُّ عقيب تلك الحضارة والنضارة وقد تنكرت في وجههِ معالم العلم وتخدشت ملكةٌ طالما رسخت في عقول الاجيال الغابرة الى ان بلغ انقلاب الحقائق في هذه الآونة ان فريقًا ممن تُوقع منهم نُصرةُ العلوم اصبحوا ينكرون جهارًا على غير استحياء تدريس علم تقويم البلدان او الجغرافية في احدى الكليات الاسلامية الشهيرة بعد ان كان لسلف هذه الامة في العصور التي يدعوها الغربيون بالمظلمة عنايةٌ بكل فن ومطلب

كان من العرب الفلكيّ والرياضيّ والطبيعيّ والمهندس والجغرافيّ والمؤرخ والبيانيّ الخ ولكن ايام كان علماؤهم يطرقون كل موضوع ويمارسون كل فضيلة علمًا وعملاً فيستعينون ببعض